نزوع الادب

بقلم داود جرجس درويش

بين أدب «الحبر والورق» وأدب «اللحم والدم» او بين أدب الانطواء وأدب الانضواء، او قل بين أدب الاعتزال وأدب الالتزام يذر قرنه اليوم في الأدب العربي، في مصر ولبنان، صراع اين منه صراع القديم والجديد إبان عصر النهضة الادبية في القرن السابع عشر الاوربي. بل هو نتيجة متسلسلة عن صراع القديم والجديد في كل العصور وكل الامم، هذا الصراع الابدي بين حلقة تطورية سابقة وحلقة لاحقة.

فمن مذاهب في الادب متنوعة في الغرب والشرق: من كلاسيكية ورومنتية ورمزية وسادية وبرناسية وواقعية، وحياتية وسوريالية، الى كلاسيكية جديدة فالتزام وجوديّ الى أدب مستقل، أدب الفن للفن، والى أدب منضوٍ الى مختلف الألوية الفكرية من اقتصادية وسياسية واجتماعية وفلسفية، الى أدب ملتزم اجتماعي، قومي أو انساني.. الى مختلف الضروب والانواع والتفرعات من كل مدرسة ادبية على حدة..

في غمرة هذا الصراع الذي يجد مقدماته في جذور التاريخ البعيد ويبسط اجنحته عبر الحيز الارضي، والذي ينتقل تياره اليوم الى الشرق العربي، لا بد ان تتضارب الآراء وتتشابك المفاهيم، وتتفاعل الخلاصات — ولا بد ان ينظر الاديب الناشىء حوله فاذا بفوضى تتراءى له في مناهج الادب، بله في مناهج الاجتماع، وفي مناهج الحضارة والفكر.. وقد يتردد حينذاك بين حلول ثلاثة:

يعتزل الادبَ والمجتمع خشية على عقله من الاختلاف تجاه هذه البلبلة الطاغية..

أو ينضوي الى لواء — أيّ لواء — من ألوية الفكر والأدب المنشورة، فيضيف الى عدد جنودها بطلاً جديداً..

أو هو يتحدى كل سمتٍ سلفه فيروح يختط لنفسه السبيل عبر ادغال الحياة ومجاهل الكون. وقد يتيح له الحظ قدراً، فيتألب من حوله الانصار والمعجبون، ويسير على غراره الناسجون — هذا اذا لم يتصدّ لهم البعض داعياً الى ان يكون كل اديب حزباً قائماً بذاته — .. وقد يعيش اذاً منعزلاً وحيداً سجين نفسه وافكاره، الكل في وادٍ وهو في واد، كواحة في صحراء، او ان شئت فقل كوتد في روضة..

ادب الاعتزال

معذرة من الاستاذ عبد اللطيف شراره اذا كنت قد تطفلت على ادبه بمثل هذه الطريقة المفاجئة. واسرع فاؤكد له «اني بعيد كل البعد عن روح الاجرام والارهاب والايذاء» وعن «الدعاوات المغرضة والاباطيل الكاذبة» ولست اذاً ممن ينوون به شراً او اذى.. انما هي عبارة ذكرتها له فايقظت ما كان تبقى في كوامن نفسي من انفة وتحرر، وقد كادت تنزلق رجلاي مع التيار.. فما يذهلني ان اراه هو نفسه حائراً متردداً، ينقل رجلاً من البرعاجية ليلقي بها الى «الحرية التي هي القاعدة ولا قاعدة غيرها» والى «استقلال الشخصية..» وتفردها بما تعطي وتغلّبها على القيود الاجتماعية التي تحد من انطلاقها «في آفاق النور والمعرفة والاختبار» وفي «ان كل اديب حزب قائم بذاته، فلا يطمئن في حقل الحياة العامة الا لما يراه».

برغم ما عليه من ورنيش رديء المنظر فاقد الجدة. غير ان الخواطر في رأس منصور كانت تخضع لقانون المد والجزر، فسرعان ما كانت تنحسر عن رأسه جاذبة معها كل ما في قلبه من عزم وتصميم.

وفرغ «منصور» من مسح الحذاء، وانتزع يديه منه. وراح يجمع أدواته ليعيدها إلى مكانها من العلبة، بينما وقف الاب وامتدت يده إلى جيب سترته تخرج ورقة من فئة العشرة القروش أعطاها إلى «الجرسون» ليأخذ منها حسابه ثم اخذ منه القروش الباقية ونقد منصور منها قرشين !!

وهمّ بمغادرة المقهى مصطحباً صغيره بيده، فتراجع منصور قليلاً الى الوراء ليفسح لهما الطريق، ثم ما لبثا ان تابعهما بعينيه وهما يمضيان في الميدان الفسيح. كانت عيناه تبصران غيرهما في الميدان الذي يغص بالناس. وكانت أذناه تلتقطان من بين الضجيج الصاخب — الذي ينبعث من عجلات الترام والسيارات ونداء الباعة — صوتاً موسيقياً جميلاً كانت تحدثه نقلة القدم في الحذاء الذي يلبسه منصور.. منصور الآخر.

(القاهرة) • **محمد ابو المعاطي ابو النجا**

ثم هو ينقل الاخرى من الأنضوائية لينضوي بها تحت لواء الحزبية الوطنية والحزبية اللغوية «والانضباط الاخلاقي» والمرحلية الراهنة . . الى نوع من الالتزام غير بعيد من الانضوائية التي هجرها . .

لست اناقش الاستاذ شراره هنا حول ما أدعوه بانضوائيته أو قل بالتزامه. بل اكتفي بمساجلته حول انعزاله أو استقلاليته هذه التي تبدو منه في انتقاده للانضوائية:

« ان خضوع الاديب للمجتمع لا يكسب المجتمع شيئا ، بل يزيد افراده عبداً من هؤلاء العبيد الذين أذلّتهم شهوات الآخرين واستعبدتهم تقاليد مجتمعهم . وان انضواء الأديب لفكرة لم يستمدها من حياته ، ولرأي لم ينبع من نفسه ، ولا تفجرت عنه شخصيته ، يدل على ان صاحبنا ليس اكثر من بوق لغيره » . الى ان يقول : « ان اديب هذه البلاد لا يستطيع في المرحلة الراهنة ان يتجند في حزب ويستمر على دعواه في أداء رسالة ادبية ؛ وإنما يستطيع اذا تجند ان يدعي كل رسالة اخرى في مناحي الاجتماع والسياسة والفلسفة والعلم ، ولكن لا يمكن ابداً ان يظل اديبا ! فالحقيقة الاخيرة هي ان كل اديب حزب قائم بذاته . . »

اظن ان الاستاذ شراره قد خلط هنا بين الحزبية السياسية والاقتصادية والاجتماعية وبين العلم والفلسفة وبين الاجتماع والاقتصاد والسياسة كعلم وتعبير . كعلم تجريبي عقلاني هادىء وكوعي وادراك متطورين وكحياة يعيشها الأديب في نفسه ويتمثلها بتفاعله مع بيئته ومحيطه ومجتمعه. وليس كمفهوم حزبي أو مدرسي مشتق عن نظرة خاصة للحياة في زمن عابر ، او كخلاصة مجمدة للحركة التطورية ضمن حدود الواقع الآني، الواقع الزمكاني الاجتماعي المحدود باطار الزمن والحيز والوجهة الخاصة، قد يكون في فترة تاريخية محدودة ثم يمضي . . فالحزبية اقتصاد او سياسة او اجتماع محدود المفهوم . اما الاقتصاد والسياسة كعلم ، اما الفلسفة والاجتماع كوعي وإدراك وحياة ، فانعكاس مستمر لواقع متطور يصبو إلى الحقيقة الكلية وينزع إلى المطلق.

وبعدُ فان لم يعبر الأديب في ادبه عن علم وادراك وحكمة وإن لم يعبر عن اجتماع وسياسة واقتصاد او عن تربية وصحة وعمل ، فعمّ يعبر اذاً؟ أيعبر عن القطط المدلّلة تمرّض في احدى مستشفيات انكلترا ؟ ام يعبر عن قوة الشم لدى كلاب الصيد في فرنسا ؟ أم هو يتيه في نجوى القمر والنجوم ويحلم بذكرى ليلى وهند وسعاد ؟ ام تريده سائحاً في اثر طرزان بين ادغال إفريقية واوقيانية ؟

ومتى امكن لكل اديب ان يكون جزءاً قائما بذاته يؤلف هو رأسه وقلبه واجنحته والقاعدة ؟ وهل يود الاستاذ شراره أن يخلق لنا من كل أديب فيلسوفا عبقريا كهراكليت وارسطو وديكارت وهيغل ؟ وعالما اقتصاديا من نوع جول سيمون وفورييه وكارل ماركس ؟ ومفكراً اجتماعياً فذاً كرينان واوغست كونت وابن خلدون ؟ وأديباً إلى ذلك . . اديباً من طراز شكسبير وغوته وراسين والمعري ؟ ام يريده ان يكون كل ذلك دون ان يتقن شيئاً من ذلك ؟ وهل يعقل ان يجتمع في رجل واحد صفات ومؤهلات قد يتعذر وجود واحدة منها في الاديب الواحد ؟ أولا يخلق ذلك من حولنا محيطاً عجيبا كله لجج وأمواج من المستحدثات الفكرية المبتكرة تقتتل على البقاء وليس من يدعو اليها وليس من ينافح عنها وليس من يسعى إلى تحقيقها حياة ومجتمعا جديداً، إلا ذلك الاديب الجامع للفكر والتعبير والتحقيق على أكمل وجه في شخصه الفذ نسيج وحده ! والذي لا أعقل ان يكون له صورة خارج مخيلة مبدعه، اليس ذلك عودة منا في نهاية المطاف إلى البرعاجية والعزلة بحجة التحرر من المجتمع والهرب من عبودية المجتمع ؟

* * *

اذا كان الاستاذ شراره لم يحقق على الوجه الصحيح ما يصبو اليه من الخروج عن البرج العاجي ، واذا كان في محاولته نفض اليد من الانضوائية قد عرض مذهبه للانزلاق نحو نوع من التحرر والانعزال هو نقيض للانضوائية على صعيد الادب واستمرار ولو جزئي للبرعاجية وان تكن من نوع مبتكر . . فهذا الاستاذ باسيلا يعود بنا بجرأة وصراحة لا لبس فيها ولا مواربة الى برجه العاجي حيث يرى ان « الانضوائية هبوط في الادب من مناطقه الصافية واجوائه المترفة حيث الشعر نغم وصبوة والقصة حياة تنهمر كالحياة سكباً سهلاً على غير هدف وفي غير غاية . . وارتفاع بالعقيدة والمذهب وما ينطويان عليه من حذلقة وفذلكة الى مراتب الفن حيث لا شيء الا جمال واغراء وفتون ودوران الايام على مهل ووجهه الكريم . . »

نحن نسأل الاستاذ باسيلا متى رأى الجمال يتجلى في الفن — على اعتباره روعة — اسمى من الحق ينير العقيدة والمذهب ولو جزءاً وزاوية ؟ . . وأين الحذلقة والفذلكة في العقيدة والمذهب

من حذلقة ارباب الفن للفن ومن اسفاف الكلم الغنائي عندنا وميوعة النغم الموسيقي في هذا الفن الذي بين ايدينا ؟.. واذكر هنا عرضاً ، ادباً كانت له هيمنة في عصور الانحطاط العربي ، هو ذلك الادب اللفظي ، او المقامات المسجعة ، إدب الترصيع والزخرف والحشو والالفاظ النابية والتعبير الغامض وادب النظم ، لا شعور ولا فكرة ، وتراصف الاصوات الجزلة تقوم مقام المعاني .. اذكر ذلك النوع من الادب حينما اقرأ للأستاذ باسيلا وهو يدعي ان العقيدة والمذهب حذلقة وفذلكة لا قبل لهما بالارتفاع الى مراتب الفن الادبي: ادب الحياة ينهمر سكباً سهلاً على غير هدف وفي غير غاية .. اشهد ان الادب اللفظي ادب عصور الانحطاط قد حقق امنية الاستاذ باسيلا .. اشهد انه لا هدف له ولا غاية الا تلك الغاية الوضيعة يتوخاها « الاديب » من إثارة اعجاب معاصريه بحذلقته وفذلكته وفنه للفن .. ووجهه الكريم ..

وهل صحيح ان الحياة تنهمر سكباً سهلاً على غير هدف وفي غير غاية ؟.. فأي معنى للحياة اذاً ؟.. وكيف نؤمن بحركة الحياة الصاعدة المنتشرة التي ندعوها التطور ؟ . وذلك النظام الجبار في الكون فلكاً وذرّة وعضوية ، وذلك الفن الحيوي الأخاذ في حبكة الكيان الثابت والاحساس الحيّ والوعي المستوعب .. اهو سير عفوي في ظلمات معتسة نحو لا شيء ؟.. ام ان الاستاذ باسيلا يتخيل حياة غير هذه التي نحياها ، حياة ناعسة غافلة حالمة مثلها مثل الادب الذي يدعو اليه ؟ . ما اتعس الانسان في مثل تلك الحياة المنهمرة على غير هدف ، النابعة من لجج الصدف ، الغارقة في ظلمات الحظوظ والنحوس ، المنصبة في شطوط الاقدار المحتومة .. وما ابلد الانسان يغل نفسه بقواعد وسنن ونظم وشرائع ، انه لا يدري « ان الحياة تنهمر سكباً سهلاً على غير هدف وفي غير غاية » .

كلا ليس ادب النعاس اللذيذ والغفوة الحالمة بأدب.. بعيد كل البعد ان يكون الادب انكماشاً على الذات وانزواء في قوقعة وإطلالة على الكون من وراء برج عاجي .. واستمراء اللذة والمتعة لا يهنأ بها غير هذا الأنا » الشرود لا همّ له من الكون والمجتمع إلام يؤول بها المصير ! .

ما هو الادب ؟

ورب سائل يعترض عليّ بقوله : فما هو الأدب اذاً ، وكيف تنتقد أدباً وانت لم تحدد لنا معنى الادب ؟ لكي نبلغ من المجموع إلى اضاءة المبهم في هذه المغمضات الحالكة حول الادب وعلاقته بالاديب كانسان يدرك ويشعر ويعبر ، لا بدّ لنا من ان نعود ادراجنا إلى اجتلاء معنى الأدب. ولست اقصد بذلك إلى وجوب استعراض لغة الأدب : ادب يأدب مأدبة وأدباً.. فأنا لا اركن إلى أدب اللغة .. ولست أثق بصلاحية المعنى المشتق عن اللفظ والحرف ومومياء المعاجم في التعبير الصحيح عن معاني الحياة .. الحياة المتطورة ، تتخطى نفسها بنفسها وتستحيل إلى سواها بعد إذ كانت حدثاً عبر عنه ارباب اللغة يومئذ بالفاظ وحروف واصطلاحات كانت من واقع الحال آنذاك . واذ شاؤوا لها تسميراً في بطون المعاجم إذا بها تجتاح السياج وتمزق الأغلفة ويقتنصها مفهوم الانسان الجديد تحت ثوبها الجديد ، وظل الانسان القديم في تصلبه ، يقلب صفحات المعاجم ويراجع مكاتب النحاة ودور الصيارفة وإذا به كمن ينبش التراب في بعثة اثرية ليجد أقاديم منسية هي من صميم التاريخ ..

عفواً لقد ضللت الطريق إلى الموضوع .. ام يخيّل إلي انني طرقته من احدى نوافذه الجانبية ، فسماحاً من القاريء العزيز إذا كنت قد حاولت اخذه على حين غرة :

ليس الأدب الفاظاً ومعجما واصطلاحاً .. وليس الأدب صرفاً ونحواً وقواعد وتراكم اغلال . . وليس الادب تنميقاً وتزويقاً وتورية ورمزاً ولثا .. فما الادب اذاً ؟

إن مقومات الحياة لم تكن يوما في الغلاف والقشرة بل في بذور المعنى والمقصد والمؤدى .. بل في نواة المدلول نريده بتلك الالفاظ غاية وقصداً. فلِمَ نريد أن يكون الادب شيئا غير الحياة ؟ لماذا نريد الادب يعبر عن كل شيء آخر ولا يعبر عن الحياة ؟ فالادب هو الحياة ، هو التعبير الصادق الواضح المفعم عن معاني الحياة .. هذا هو الادب !

ما اشبه وظيفة الادب والفن والفكر ، وظيفة التعبير عامة، بوظيفة الماء في خلايا الجسم : هو السائل الناقل للحركة والحياة والتفاعل ضمن الخلية الاجتماعية الحية وعبرها، وهي الشريان الذي يؤمن استمرار الاتصال بين الفرد والفرد ، والفرد والمجتمع ، والمجتمع المحدود والمجتمع البعيد ، فالكون الاعظم .

الفكر ، التعبير ، العمل ، هي الثالوث الحياتي الخالد . وضامن الاتصال بين الفكر والعمل هو هذا العامل الوسيط : التعبير : الحكمة ، الادب ، الفن . والادب هو ذلك النوع الخاص من التعبير ، التعبير الذي يتخذ من الفكر والاحساس

• والوجدان جذوره وقواعده ومن الحكمة والفن والاتقان صناعته • انني لم ابلغ في ذلك الى تحديد مانع في الادب ، إنما كان مني رسوب الى زاوية بقاع المعنى الذي يتخذه الادب في إحدى صفاته ، لعلها هي الاساسية !

الادب ، اذا صح هذا المفهوم اذاً، تعبير عما يختلج في النفس من مشاعر وانفعالات وأحاسيس ؛ وما يعتمل في العقل من صور ومقابلات واحكام ، في انعكاسها على صفحة الوجدان حوادث الكون الخارجي والمجتمع المحيط وآثار تلك الاحداث مجتمعة متفاعلة متجاوبة متسلسلة الاصداء إلى ما لا نهاية !

واذاً فوظيفة الاديب الاساسية هي « الاتصال » : الاتصال بروح الكون وكنه الطبيعة وجاذبية المادة ، ونفوذ إلى تاريخ التطور والحاصل الواقع منه على ضوء احداث العالم وتأثيرات تلك الاحداث في المجتمع ، وانعكاس تلك الاحداث وتلك التأثيرات في تطور الآراء والمذاهب الاجتماعية ، والخطوط المرتسمة على صفحة الافق المقبل من وحي جذور الماضي ووجهة نزوع ذلك الماضي في بلوغه إلى الواقع •

أو ليس ذلك الاتصال «بروح الكون» على شيء من الصوفية الغائمة والنرفانا وروح التقمص ؟.. قد يكون ذلك او قد يكون بعض ذلك.. وماذا يضير الادب اذا كان صوفياً في بعضه لاسيما وبعض الادب العالمي والغربي منه ، ينزع في كثير من مناحيه، الى كثير من الصوفية ؟ ..

ولكن هل يعقل ان يكون على صوفية غائمة ، ادب يستمد لبه وجذوره من جذور العلم والتجربة والمادة .. ويندرج في سمته بمحاذاة التطور تاريخاً وواقعاً ؟ .. ربما .. وقد تكون جذور مقابلة تركن الى الروح والوحي واللاهوت .. وماذا يضيره ذلك ايضاً .. اليس كذلك يحدث التوازن ؟ ..

الادب التعبير .. الادب الاتصال .. محبة وألفة وجاذبية واتحاد.. هو شعور عميق بوجود الكون ونظام الوجود وصعود النبات ودبيب الحياة ودوران الحركة .. هو احساس مرهف بجمال الارض وعبير السماء وإخاء المجتمع عبر حدود العنصر والطائفة والوطن والطبقة واللون والقومية : إلى معانقة الانسان ..

الادب التعبير .. الادب الاتصال .. الادب الاتحاد .. تمثيل وحياة .. والادب التمثيل وعي ويقظة وادراك . وفكر وضمير وحكمة.. واتزان وقياس واستيعاب. هو حركة رحوية تكدس ركام المعلومات والصور والذكريات لتطحنها طحناً ولتعركها عركاً في بوتقة التأمل والبحران .. ثم تعمد إلى ذلك الجوهر الحكمي وبنات الفكر فتصهرها وتذيبها في عصارة الشعور والوجدان بحيث تصبح سائغة للهضم فيقدمها الاديب لقمة مريئة على مأدبة الأدب القشيب : أدب اللفظ والصرف والمعجم ، الادب المكتمل معنى ومبنى .

هذا هو الادب في حقيقته الموضوعية : تمثيل الوجود والحياة والمجتمع : المجتمع المجاور والمحيط والمجتمع البعيد الشامل . وتجاوب نفسي مستمر ، يأخذ الحركة والحدث والكيان صورة وجوانب وضروب العقائد والخلاصات الفكرية الدائرة في الفلك الانساني ليتمثلها في قلبه ولبه وليخرج إلى المجتمع بخلاصة تزاوجها مع عقليته ومفهومه وحيويته واستيعابه . وينظر إلى التطور كحركة من صميم وجوده تؤلف حياة هو احدى حلقاتها .. فعليه ان يجعل من حياته حلقة تطورية فاعلة في سير التطور المقبل .

داود جرجس درويش